الفصل الثالث عشر

الظهور الأول

السادس عشر من تشرين الثاني عام 2003م

إنّه ملعب دراغاو الجميل، بلونه الأزرق المتباين مع أرضية الملعب الخضراء؛ مدرّجاته المكشوفة تتيح إلقاء نظرة على مدينة بورتو بأضوائها البهية. تزيد المظلة البيضاء من بهاء أرضية الملعب.

بُنِي هذا الملعب الذي صمَّمه المهندس مانويل سالغادو، ويتسع لاثنين وخمسين ألف متفرِّج، ليحلّ محلّ الملعب القديم المُسمّى داس إنتاس، ويستضيف بعض مباريات بطولة أُمم أوروبا لعام 2004م.

أُقيمت المباراة الافتتاحية للبطولة هناك، حيث واجهت البرتغالُ اليونانَ. إنّه الملعب الذي يحتضن عادة مباريات نادي بورتو لكرة القدم؛ وهو مكان جميل ومضاء بصورة جيدة، تتناسب مع أول ظهور لليو الذي سيشارك الفريق الأول اللعب، خاصة أنّه يصادف يوم الأحد، السادس عشر من شهر تشرين الثاني عام 2003م؛ وهو تاريخ افتتاح الملعب.

تجمَّعت الحشود الهائلة التي حفزها الفضول وحبّ الكرة إلى ترقُّب بدء مراسم افتتاح البطولة، ومتابعة لوحات فنية رائعة لكرة القدم في مدينتهم، وتجربة سحرها مباشرة، آملةً أن تمثِّل ألوان ملابس فريقها فألًا حسنًا بالنسبة

إليهـم، ومتطلِّعةً إلى قضاء نصـف ساعة بأبصار شاخصة تجـاه السماء التي اشتعلت بالألعاب النارية.

تُعَـدّ مبـاراة اليوم حدثًا قليل الأهمية؛ فهي تفتقـر إلى كثير من فنون كرة القدم، وإلـى مشاعر الإثارة والحماس التي تـلازِم مدرّجات المشجّعين عادة، ناهيـك عن الأداء الممل الهزيل الذي رافق الحـدث والفريق المضيف، وانتهى بخروج هذا الأخير فائزًا بنتيجة (0-2).

يظهر ليونيل ميسي أول مرّة في الدقيقة الرابعة والسبعين. لقد كان التغيير الثالث الذي يجريه نادي برشلونة، الذي انضمّ إلى كوكبة الأبطال الذين يحتفلون بذلـك العرس الكروي البرتغالـي. ضمّت التشكيلـة – قسرًا- كثيـرًا من لاعبي الفريـق الرديف؛ إذ جرى استدعـاء اللاعبين الدوليين إلـى منتخبات بلادهم، للمشاركة في التصفيات المؤهّلة لبطولة أُمم أوروبا لعام 2004م، أو في المباريات الوديـة. إذن، لقد استُدعِـي الصغار الواعدون لرحلة البرتغـال، وهم: خواكيرا، وأوسـكار لوبيز، وأوليغيـر، وماركيز، وفيرناندو نافـارو، وتشافي، وروس، وسانتا ماريـا، وغابري، ولويس غارسيا، ولويس أنريكه، وإيكسبوزيتو، وتياغو، وجوردي، وأوريـول رييرا، وميسي، الـذي كان قد أحرز في اليوم السابـق ثلاثة أهداف في أثناء مشاركته الفريق (أ) في غرانولرز (مدينة قريبة من برشلونة).

يدخل ليو بديلًا لنافارو، مرتديًا القميص رقم (14)، على أحرّ من الجمر للكشـف عن معدنه. وقد نجـح في ذلك مع أنّ مشاركته لم تتعـدَّ ربع ساعة؛ إذ هيَّـأ لزملائه فرصتين للتسجيل. يُعلِّق فرانك ريكارد - بعد المباراة- على ذلك قائلًا: «إنه فتى موهوب جدًّا، ولديه مستقبل واعد».

يبلـغ ليو من العمر ستـة عشر عامًا وأربعـة أشهر وثلاثـة وعشرين يومًا. ويصبـح بذلـك ثالث أصغر لاعـب في تاريخ النـادي يشارك الفريـق الأول في

مبارياته. وقد سبقه إلى ذلك كلّ من: بولينو إلكانتارا، الذي شارك أول مرّة في مباراة أمام نادي كاتاليا في الخامس والعشرين من شهر شباط عام 1912م، وكان يبلغ حينها خمسة عشر عامًا وأربعة أشهر وثمانية عشر يومًا، والنيجيري آرونا بابانغيدا الذي أشركه المدرِّب السابق للفريق لويس فان خال دقائق معدودات في مباراة أمام نادي إيه جي، أو في الهولندي عام 1998م، وهي مباراة ودية تحضيرية أُقيمت في هولندا، وكان عمره وقتئذٍ خمسة عشر عامًا وتسعة أشهر وثمانية عشر يومًا. لقد كان ذلك حقًّا مؤشِّرًا إيجابيًّا لأداء الفتى الصغير الذي وصل من الأرجنتين قبل سنتين ونصف السنة.

شكَّلت تلك الليلة الرائعة في بورتو استثناءً إلى حين؛ إذ تعيّن على ميسي الانتظار حتى شهر تموز من عام 2004م ليعاود اللعب مع الفريق الأول مرّة أُخرى. كان ذلك في الجولة الآسيوية للفريق التي شملت كوريا الجنوبية، واليابان، والصين.

وكان نادي برشلونة قد شهد تغييرات كثيرة قبل ذلك بمدة وجيزة؛ إذ تمكَّن خوان لابورتا من الفوز في انتخابات رئاسة النادي التي جرت يوم الخامس عشر من شهر حزيران عام 2003م. وكان فرانك ريكارد قد وصل لتدريب الفريق الأول، تبعه تقديم أمل النادي الجديد؛ رونالدينيو، الذي رحَّب به نحو 30,000 مشجع في نو كامب.

بعد انتهاء موسم 2002م-2003م الكارثي (الخروج من ربع نهائي دوري الأبطال على يد يوفنتوس، وكذا كأس الملك على يد فريق نوفيلدا القادم من الدرجة الثانية، واحتلال المركز السادس في الدوري بفارق اثنتين وعشرين نقطة عن صاحب اللقب ريال مدريد، وإقالة مدرِّبيْنِ هما لويس فان خال، ورادومير آنتك، ورئيسيْنِ للنادي هما خوان غاسبارت، تبعه أنريك رينا مدة انتقالية إلى حين إجراء الانتخابات)؛ يأمل المساهمون في النادي أن تتحسن

الأمـور، وأن تُردَم الهوّة بينهم وبين غريمهم التقليـدي ريال مدريد؛ ما يتطلّب من النادي تصويب أوضاعه، وجلب مَن بإمكانه المساعدة على ذلك.

لم يقتصر التغيير على الفريق الأول فحسب، بل تعدّاه ليشمل فرق الفئات العمريـة. وقد بـدأت بوادر هـذا التغيير بإقالـة مدير الكرة خواكيـم ريفه من منصبـه، وتعيين جوسيب كولومر خلفًا لـه، الذي قام- في أثناء ولايته- بتعيين الأرجنتينـي أنخـل غوبيرمو أويوس مدرِّبًا لفريـق الشبـاب (ب)، الذي يضمّ لاعبينَ من مواليد عام 1987م.

وكان أويوس لاعب الجناح قـد لعب لأندية كوردوبـا، وخمنازيا دل بلاتا، وبوكا جونيـورز، وتشاكاريتـا، وإيفرتون (في تشيلـي)، وديبورتيفو تاكيرا (في فنزويلا) وريال كاستيا (في إسبانيا). وحين التقى هذا اللاعب ميسي سرعان مـا انسجما مع بعضهما بعضًا، حيث أخذا يتحدثان عن كرة القدم، وعن شغف ليو بنادي نيولز بالطبع. لقد فهم كلّ منهما الآخر بسرعة.

يظهر الانطبـاع الأول للمدرِّب الجديـد على الأراضـي اليابانية في بداية شهر آب من عام 2003م، حيث يوشك فريق الشباب (ب) أن يشارك في بطولة تويوتا الدولية للشباب دون سنّ (17) عامًا. يقول أويوس: «طلبت إلى اللاعبينَ أداء بعض التمرينات الخفيفة لحظة وصولي؛ بغية تليين العضلات. لم تكن تلك تمارينـ صعبة أو شاقّة. لم أكد أصدق عيني بعدها بخمس دقائق. لقد سبق أن أخبرونـي عنه بالطبع. لكنّني لم أدرك أنّ الأمـور بلغت ذلك الحدّ الكبير؛ فقد كان ليو شرسًا حقًّا».

ترسّخـت هذه الفكرة في أثنـاء المباراة التي خاضهـا الفريق أمام فريق نـادي فينورد في إقليم إيتشه؛ إذ مرّت ربع ساعـة على البداية والبارسا متأخر بهدف. ليو يطلب الكرة، يتجاوز أربعة مدافعين وحارس المرمى، ثمّ يضع الكرة

علـى طبق من ذهب لزميله سونغو ليسجّل هـذا الأخير هدفًا. لا يُصدِّق أويوس عينيه؛ فهو من ناحية مشدوه من روح التعاون التي يتحلّى بها الصبي، ونأيه عن الأنانيـة التـي كانت ديدن مَن هـم في سنّه (أو أكبر منه سنًّـا)؛ وهو من ناحية أُخرى مبهور من الأداء الفني المتميِّز الذي رآه.

اختير ليو أفضل لاعب في البطولة؛ وهو لقب سيحظى به مرّة أُخرى. ولكن، فـي بطولة جاوميه سيرا التذكارية لكرة القدم التي ستقام في مدينة سيتغيس، وبطولـة سلفادور ريفاس ميرو التذكارية الثالثـة التي ستقام في سان فايسينت دي مونتالـت، فضلًا عـن دورة الصداقة التي ستشهدها مدينـة سان جورجيو ديلا ريشينيفيلدا أواخر آب، وهي مدينة تابعة لمقاطعة بوردينوني الإيطالية.

تمكَّن فريق الشباب (ب) من التغلُّب على فريق بارما، وفريق مدينة فريوللي - فياتشينـزا- جيوليـا المستضيـف، وكذا فريق هانـزا روستـوك، وإنتراخت فرانكفورت، وتريفيزو. وأخيرًا حقَّق فوزًا باهرًا على فريق يوفنتوس في المباراة النهائية بنتيجة (0-4).

لقـد تمكَّن الفريق مـن تسجيل (35) هدفًـا، إلّا أنّ ليو يشعـر بالذنب ولا يسامـح نفسه من جـرّاء إضاعته ركلة جزاء. ومع أنّ الهـدف الذي أحرزه من ركلة جزاء في المباراة النهائية خفَّف من عقدة الذنب التي اعترته، لكن الخطأ الذي ارتكبه ما زال يؤرِّقه.

يحاول أويوس تهدئته في البداية، بقوله: إنّ حارس المرمى سيخبر أولاده وأحفاده أنّه صَدّ ركلة جزاء سدَّدها أفضل لاعب كرة قدم في العالَم. بعد ذلك، أخضـع أويوس ليو لتدريـب يومي يتضمّن التركيز علـى تسديد ركلات الجزاء، موضِّحًـا أنّه (ليو) قد يُسدِّد خمسـ أو ست ركلات في أثناء الموسم، وقد تكون إحداهـا حاسمة؛ سـواء أكان ذلك في مباراة مصيريـة، أم دورة مهمة. كلمات

سيتذكّرها ليو لاحقًا عندما يشارك منتخب الأرجنتين فرحة الفوز ببطولة كأس العالم لفئة الشباب دون سنّ العشرين، بفضل ركلتي جزاء يسجّلهما في المباراة النهائية.

يُذكَر أنّ الشراكة الناجحة بين أويوس وميسي (تعرّضا خلالها إلى خسارة واحدة فقط كانت أمام ريال مدريد في دورة خوزيه لويس رويز كاسادو سان التذكارية) لم تدم طويلًا على الرغم من ذلك كلّه؛ إذ اقتصرت على مرحلة الإعداد فقط. فمسؤولو النادي لا يساورهم أدنى شكّ في أنّ مستوى أداء ليو يفوق مستوى أداء أقرانه في الدوري الذي ينشط فيه، فيقرّرون ترقيته وترشيحه للعب مع فريق الشباب (أ) بصحبة جيرارد بيكيه.

هناك يبدأ نجم هذا اللاعب الفريد بالصعود؛ ففي موسم واحد فقط، حظي ليو بفرصة الانتقال من فريق الشباب (ب) إلى فريق الشباب (أ)، ثمّ من فريق البارسا المصنَّف من فرق الدرجة الثالثة إلى نظيره في الدرجة الثانية. ولا ننسى اللحظات العابرة التي سطع فيها نجمه مع الفريق الأول، وعودته إلى فريق الشباب لمساعدة زملائه السابقين. وهذا وصف مفصَّل لأداء ميسي واللحظات التي سطع فيها نجمه في أثناء مشاركته كل فريق من الفرق الثلاثة:

فريق الشباب (أ): وصل ليو في ثالث أيام الدوري. مكث حتى عيد الميلاد، ولعب في هذه الأثناء - بضعة أسابيع- مع فريق البارسا في دوري الدرجة الثالثة، ثمّ عاد في نهاية شهر أيار؛ للمشاركة في كأس الملك. لقد شارك في (11) مباراة من مباريات البطولة، أحرز خلالها (18) هدفًا، كان أحدها هدفًا رائعًا بحقّ. سجّل ميسي الهدف في مرمى ريال بيتيس خلال المباراة النهائية لدورة نيرخا؛ إذ وجد نفسه في منتصف الملعب، ولاحظ أنّ حارس المرمى متقدِّم عن مرماه، فسدَّد بقوة، لتنطلق الكرة كالقذيفة متخذة شكل القوس، ثمّ تستقر في شباك المرمى، معلِنة إحراز هدف، وتحقيق انتصار.

فريـق البارسا المصنَّف ضمن فرق الدرجة الثالثة: يعاني الفريق أوضاعًا صعبـة مـع نهاية شهر تشرين الثانـي من عـام 2003م؛ إذ تمكَّن فقط من جمع (9) نقـاط مـن (14) مباراة. ثمّ تتغيَّـر الحال حين تصلـه التعزيزات الممثَّلة فـي ميسي وإلفي القادميْنِ من فريـق الشباب (أ). يخوض اللاعبان مباراتهما الأولى مع الفريق محقِّقين له النصر على فريق يوروبا في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني. وقد أبلى كلاهما بلاءً حسنًا، لكنّ اللحظة الفضلى تأتي في الرابـع من شهر كانون الثاني عام 2004م، حيث يلعـب الفريق أمام فريق نادي غرامينيت في سانتا كولوما. البلوغرانا متأخرون بهدف (2-1).

وفـي الدقيقة السابعـة والثمانين، يحين الوقت ليسطـع نجم ليو. فيسجّل هدفيـن بلمح البصر؛ أحدهما بضربة رأسيـة، والآخر بقدمه اليسرى (إضافة إلـى هدف التعادل قبل ذلك)، ويؤمِّن البرغـوث النصر لفريقه. لقد تمكَّن من إحـراز خمسة أهداف فـي عشر مباريـات، وأسهم في إنقـاذ الفريق من شبح الهبـوط، ليرحـل بعدها عاقدًا العزم علـى رفع سقف طموحه ومـا يصبو إليه؛ فمستواه يؤهِّله للعب في دوري الدرجة الثانية أو الأولى، وهو واثق من قدرته على إيجاد موطئ قدم له في مثل هذا الدوري، مع أنّه لايزال في السادسة عشرة من العمر.

فريق البارسـا المصنَّف ضمن فرق الدرجة الثانية: خاض ميسي مع هذا الفريـق - على أرضـه - مباراته الأولى في السادس عشر مـن شهر آذار، التي جمعتـه بفريق ماتاريو. وقد اعترف المدرِّب بيـري غراتاكيوس بضرورة إعداد برنامج تدريب خاص بليو؛ لأنّه سيضطر إلى مواجهة لاعبينَ أكبر منه، وأطول، وأقـوى، وأكثـر خبـرة. وأعرب عن ذهولـه من قدرة ليـو الفائقة علـى التأقلم والتكيّـف بسرعة مـع الفريق الجديد، الذي يضمّ زمـلاء مختلفين، وتشكيلات متنوعة، ويقدِّم مع ذلك أداءً مذهلًا.

لعب ليو خمس مباريات، حقَّق الفوز في أولها فقط. ومع ذلك، فقد علَّق غراتاكيوس على ذلك بقوله: إنّه كان يتأقلم وحسب، واستطاع بعدها الكشف عن قدراته. وهذا ما حدث حقًّا؛ إذ اعتاد - بعدئذٍ- اللعب في دوري الدرجة الثانية، وكان الأفضل في المباراة التي خاضها فريقه أمام فريق جيرونا، وذلك يعيدنا إلى المربع الأول كما في لعبة السلّم والثعبان؛ فريق الشباب (ب). يقول مدرِّبه في فريق الشباب خوان كارلوس بيريث روخو: «لو كان ليو شخصًا آخر لشعر بالانزعاج، لكنّه لم يفعل. كان لا يتردَّد في تقديم المساعدة للفريق (ب) كلّما تطلّب الأمر ذلك».

يتكرر الأمر نفسه في المباريات الثلاث الأخيرة من دوري عام 2003م-2004م؛ إذ لا تزال ثلاثة فرق تتصارع على اللقب، هي: البارسا، وإسبانيول، وبريميا دي مار. تَحدَّد اللقاء المصيري الذي سيجمع فريقه بفريق البارسا في الخامس عشر من شهر نيسان. وفي حال تمكَّن الببغاوات (إسبانيول) من الفوز في هذه المباراة، فإنّهم سيصبحون قاب قوسين أو أدنى من اللقب.

وفي واقع الأمر، فإنّ فريق البارسا يمرّ بوقت عصيب لا يحتمل أيّ خطأ إن أراد الحفاظ على فرصه قائمة حتى النهاية. يتفوّق ليو على نفسه، فيقود البارسا للتقدّم (1-2). وحين يحاول الخصم العودة إلى المباراة، وتعديل النتيجة، يردّ ميسي بطريقته الخاصة؛ هدف ثالث ينهي الأمور.

يحتفل الفريق بإحراز اللقب بعدها بأسبوعين. وقد أسهمت الأهداف الستة والثلاثون التي سجّلها في مباريات رسمية، وما مجموعه خمسون هدفًا (أحرز أربعة عشر هدفًا منها في مباريات ودية)، في ذيوع صيته، فضلًا عن فوزه بعَقد احترافي جديد. لم تكن المفاوضات التي سبقت توقيع العَقد سهلة؛

نظرًا إلى الخلافات التي دارت رحاها بين مسؤولي النادي وخورخي ميسي الذي تولّى الموضوع شخصيًّا. وفي نهاية المطاف، تمكَّن الطرفان من التوصُّل إلى اتفاق. وكان مسؤولو النادي على يقين أنّ ليو سيحظى بخيارات أُخرى إن قرَّر الرحيل، خاصة بعد خسارتهم سيسك فابريغاس لصالح نادي آرسنال خلال الفوضى التي أعقبت إقالة خوان غاسبارت، وهم لا يريدون أن يكرِّر التاريخ نفسه مرّة أُخرى.

obeikandl.com